الباب الثاني

بين السلطان والإمام

"السلطان كراكب الأسد، يهابه الناس، وهو لمركوبه أهيب".

أفلاطون

obeikandl.com

آلت الخلافة إلى بني العباس سنة ١٣٢ وكان "السفاح" أول خلفائهم. ثم مات فخلفه أبو جعفر المنصور، ليبقى في الخلافة اثنين وعشرين عاما (١٣٦– ١٥٨). وطد فيها أركان الدولة العباسية، وأخضع الخارجين عليها في كل أرجاء "الإمبراطورية" فهي لم تعد دولة دينية كما دعوا لها منذ بثوا دعاتهم من فاتحة القرن. ولم تصر "للرضا من آل محمد" كما كانوا يدعون. بل غصبوا حق أبناء علي، كما كان بنو علي عند قيامها عاجزين عن تولي السلطة. وكان أحقهم بها – وهو جعفر بن محمد – عازفا عنها، عارفا أن مهمة حياته هي تعليم المسلمين.

وجرت الأمور مجراها الطبيعي للغالبين على السلطة، يطوون أضالعهم على الخوف والحقد والحذر. ويشرعون أسلحتهم في كل مكان للدفاع عن دولتهم. وكان ذوو القربى في طليعة الأعداء، فاستعرت الشحناء بين الأقرباء،ثم سالت الدماء. وجعفر الصادق، بعزوفه واستعلائه، بعيد عن المذابح. لكن بعده عنها، لا يقيه بطش خليفة حذر، متنمر، تدعوه إلى المواجهة الشرسة ما توسوس له هواجسه مخافة أهل البيت وشيعتهم. وكان توفيق السماء حليف الإمام في مواجهاته، وإن بقيت الدولة على حذرها، تنزل بأهل البيت العذاب والاسترهاب والحبس والقتل للخلاص منهم – مع التظاهر بالعدل فيهم، حتى تقطع دابرهم.

الفصل الأول

بين السلطان والإمام

"إنما أنا سلطان الله في الأرض"

"أبو جعفر المنصور"

أهل البيت

اختلف أهل التأويل في صدد "أهل البيت"، وهم يفسرون قوله تعالى في سورة الأحزاب: (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن ترن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا. وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما) ثم يوجه الخطاب في الآيات ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، وفي الأخيرتين يقول – لنساء النبي – (وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى. وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله. إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا. واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا).

وإذا كان التطهير هو الدرجة العليا للبشر،والاختصاص به بين المسلمين يجعل لأهل البيت حقوقا وامتيازات تؤهل لإمامة الدين، وإمامة الدنيا، أي خلافة الدين والدنيا، وكان ثمة سنن مروية في تفضيل علي وبنيه وجعلهم من الأمة مجعل الأوصياء أو الأئمة وهذا شأن لا يسلمه بنو أمية، ولا بنو مروان، ولا بنو العباس، ولا كثير من قريش، فقد ذهب الفقهاء عموما، والمفسرون خصوصا، مذاهب شتى في تعريف أهل البيت، يمكن تحصيلها فيما يلي:

١– قال الشيعة: إن أهل البيت هم رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين. يؤيدهم في ذلك حديث أم سلمة أم المؤمنين أن النبي أجلس الأربعة حوله على كساء له وضعه فوق رءوسهم وأومأ بيده اليمنى إلى ربه ثم قال: "اللهم هؤلاء أهل البيت. فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا".

وعن أم سلمة أن الآية نزلت والرسول ﷺ في بيتها وأنها عندئذ كانت على باب البيت فقالت: أنا يا رسول الله من أهل البيت؟. وأنه قال: "وإنك إلى خير وأنت من أزواج النبي" وعنها أنها قالت: يا رسول الله أدخلني معهم. وأنه قال: "إنك من أهلي".

٢- وقال البعض: بلى عنى الله بذلك أزواج النبي، والحجة في ذلك توجيه الخطاب إليهن. ونقلوا ذلك عن ابن عباس، تلميذ علي وشيعته، وعامله - وذهبوا إلى أن "البيت" أريد به مساكن النبي ﷺ.

٣- وقال فريق: بل إن "أهل النبي" هم أهل بيته. ولو كان أهل البيت هم زوجاته فقط لكان النص: (ليذهب عنكم الرجس) لا (عنكم) كما هو النص في الآية. فدخل في ذلك رجال. وأهل النبي - بدلالة السنن التي أشرنا إلى بعضها - هم فاطمة وعلي والحسن والحسين ويؤيد ذلك قول الآية (ويطهركم). وهذا يوافق الرأي الأول.

٤- وإذا دخل الرجال فهم - كما قال فريق آخر - بنو هاشم. والبيت يراد به بيت النسب. فيدخل في ذلك أعمام النبي، وفيهم بنو العباس وبنو أبو طالب.

٥- ويتوسع محيي الدين بن عربي (٥٦٠) - في الفتوحات المكية - فيدخل "الفارسي" في أهل البيت. إذ الرسول يقول: "سلمان منا أهل البيت" ويضيف ابن عربي أن جميع ما يصدر عن أهل البيت معفو عنهم فيه. فهو مطهرون بالنص. معصومون. وإن توجهت عليهم الأحكام الشرعية.

ويذكر البعض قول الرسول: "سألت ربي ألا يدخل النار أحدا من أهل بيتي فأعطانا ذلك" وقوله: يا فاطمة، تدرين لم سميت فاطمة؟ فقال علي: لم سميت؟ قال عليه الصلاة والسلام: "إن الله عز وجل قد فطمها وذريتها من النار يوم القيامة".

٦- وفريق يرى أن أبناء علي من الزهراء هم الذرية المقصودة في سورة الطور حيث قوله - جل ثناؤه: (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شئ) ورووا عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه في درجته".

وبهذا ترتفع ذرية النبي – وهي ذرية علي من الزهراء – فتلتحق بالنبي. وهذا المعنى تفيده الآية ٢٣ من سورة الرعد: (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) فأهل البيت ذرية داخلة الجنة مع جدها عليه الصلاة والسلام.

٧– وهذا فريق يوسع فيشمل ذوي القربى، وتشمل آل محمد، بقوله تعالى في سورة الشورى: (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى).

وقال قوم: إن للنبي قرابة في كل بطن من بطون قريش، وإن كان أخص القرابة هم الذرية.

* * *

وظاهر أن كل هذه الأفراق على أن ذرية علي من فاطمة من أهل البيت، وأن الخلاف فيما عدا ذلك، فيرجح البعض أن القرآن والسنة الشارحة يجعلان أهل البيت هم ذرية النبي من علي وفاطمة، وهما ومعهما أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن.

لكن الشيعة يقولون قولا واحدا: إن الذرية وحدها وعليا وفاطمة هم أهل البيت، بدلالات شتى من الحديث. ثابت منها أن النبي طفق ستة أشهر – بعد نزول آية التطهير – يمر وقت صلاة الفجر على بيت فاطمة فينادي "الصلاة يا أهل البيت. إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا". فهذا نص وأنص منه حديث أم سلمة. إذ أفصح عنهم. واستبعد سواهم.

وفي بعض الروايات أن النبي ﷺ أدخل عليا وفاطمة وابنيهما تحت الكساء ثم جعل يقول: "اللهم إليك لا إلى النار وأنا وأهل بيتي. اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي – وفي رواية وحامتي – اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا".

وسيظل وصف أهل البيت قضية بين بني العباس وبني علي. فهو من مسوغات الخلافة واستمرار الرضا عنها. سأل الرشيد يوما الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق: بم قلتم نحن

ذرية رسول الله وأنتم بنو علي؟ قال: قال تعالى: (ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى) وليس لعيسى أب، وإنما ألحق بذرية الأنبياء من قبل أمه. وكذلك ألحقنا بالنبي أمنا فاطمة. وزيادة على ذلك قال عز وجل: (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) ولم يدع رسول الله ﷺ عند مباهلة النصارى غير علي وفاطمة والحسن والحسين.

ولم يكن لوصف أهل البيت كبير خطر، في دنيا الملوك من بني أمية، فلقد غلبوا أهل البيت على أمرهم جهارا نهارا، برماحهم، واستقرار الأمور لهم – لكن الدولة في عهد بني العباس قامت على شعار الدعوة "للرضا من آل محمد" دون تسمية أحد بذاته.

ولما أقبلت جيوش خراسان يقودها أبو مسلم الخراساني، بالدولة الجديدة، بعد ربع قرن من الإعداد السري، كان مقدمها استجابة لهذا الشعار.

* * *

كتب أبو مسلم الخراساني أيامئذ إلى الإمام جعفر الصادق:"إني قد أظهرت الكلمة ودعوة الناس عن بني أمية إلى موالاة "أهل البيت". فإن رغبت فلا مزيد عليك". وأجاب جعفر الصادق معلنا فلسفته: "ما أنت من رجالي. ولا الزمان زماني"(٢٣).

وفي الوقت ذاته بعث أبو سلمة الخلال – الملقب بوزير آل محمد، والذي سيصبح وزيرا للسفاح أول خلفاء بني العباس – إلى جعفر الصادق، وعبد الله ابن.. "الحسن"، وعمرو الأشرف،

---

(٢٣) خرج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب على بني مروان سنة ١٢٧ في الري بخراسان ثم استسلم لأبي مسلم بعد إذ ظفر الأخير بجيوش بني مروان. وكتب إليه يستعطفه بقوله: "من الأسير بين يديه بلا ذنب إليه ولا خلاف عليه. فإن الناس من حوضك رواة ونحن منه ظماء رزئنا الله منك التحن... فإنك أمين مستودع ورائد مصطنع. والسلام عليكم ورحمة الله" ولم يطلقه أبو مسلم. بل أورده حتفه. وقيل سمه.

من أبناء علي، مع رجل من موالي أبي سلمة قائلا له: إن أجاب جعفر فلا تذهب إلى غيره، وإن لم يجب فاقصد إلى عبد الله. فإن أجاب فأبطل كتاب عمرو. وذهب الرسول إلى جعفر فقال: مالي ولأبي سلمة، وهو شيعة لغيري. ووضع الكتاب في النار حتى احترق وأبى أن يقرأه. قال الرسول: ألا تجيبه؟

قال: قد رأيت الجواب.

ثم مضى الرسول إلى عبد الله. فقرأ الكتاب. وقصد إلى جعفر الصادق ينبئه بورود الكتاب إليه من شيعته بخراسان. قال الصادق له: ومتى كان لك شيعة بخراسان؟ أأنت وجته أبا مسلم إليهم؟ هل تعرف أحدا منهم باسمه؟ فكيف يكونون شيعتك وهم لا يعرفونك وأنت لا تعرفهم؟

قال عبد الله: كأن هذا الكلام منك لشئ؟

قال الصادق: قد علم الله أني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم. فكيف أدخره عنك؟ فلا تمن نفسك فإن الدولة ستتم لهؤلاء.

وذات يوم دخل على جعفر الصادق سدير الصيرفي قال: يا أبا عبد الله. ما يسعك القعود. قال: لم؟ قال: لكثرة أنصارك.. مائة ألف. مائتي ألف. فتساءل الإمام عن عدد المخلصين منهم. وأبدى زهدا وبصرا بالعواقب.

والحق أن زين العابدين وابنه وحفيده وبنيهم لم يتجهوا إلى أن تكون لهم "دولة". ومن ذلك قول الكاظم لهشام بن الحكم: "يا هشام كما تركوا لكم الحكمة اتركوا لهم الدنيا".

ولما خرج زيد بن زين العابدين على هشام كان خروجه ثورة طارئة. والمنهج الزيدي غير منهج الإمام جعفر. وثورة زيد لم يسبقها إعداد بل استجاب لأهل الكوفة فخذلوه كما خذلوا جده. وإنما الذي فكر ودبر وأنفذ الدعاة، وتابع الدعوة، هم بنو العباس.

وإبراهيم الإمام يكتب إلى واحد من دعاته في خراسان: "... وإن استطعت ألا تبقى في خراسان من يتكلم العربية فافعل" وهو تعطش للدم في سبيل السلطة، وسفك لدماء العرب خاصة، لا يقول به واحد من الأئمة.

* * *

وكان بنو هاشم قد اجتمعوا قبل ذلك بالأبواء – مكان في أعلى المدينة – والقدور تغلي في خراسان، والجو يزخر بالنذر، فعلى الذين يرسلون الدعاة إلى خراسان، والذين تجري الدعوة لهم، أن يتدارسوا أمورهم، ليعرفوا لمن تئول الأمور. فمثل فرع العباس بن عبد المطلب عم النبي إبراهيم الإمام "بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس"، وأخوه أبو جعفر "المنصور". وعمهما صالح بن علي. ومثل فرع بني علي بن أبي طالب، عبد الله بن الحسن "بن الحسن بن علي" وابناه محمد وإبراهيم. ومحمد بن عبد الله بن.. عثمان بن عفان "لأن أمه من بني الحسن بن علي" وهو أخو عبد الله لأمه.

وأجمع الفرعان على "محمد بن عبد الله بن الحسن" الملقب بالنفس الزكية لورعه الكامل وعلمه المشهود به. بل قد تحمس له أبو جعفر، وكان يومئذ يلبس قباء أصفر. ولما حج محمد لقى أبا جعفر فبايعه مرة أخرى. بالمسجد الحرام ذاته. وأمسك أبو جعفر بركابه يوم ذاك وراح يقول للناس: هذا مهدينا أهل البيت.

وإذ لم يكن لبيت الحسين ممثل في اجتماع يوم الأبواء بعث عبد الله بن الحسن إلى كبيرهم جعفر بن محمد فحضر واعترض على بيعة محمد بن عبد الله.

قال: لا تفعلوا. فإن هذا الأمر لم يأت بعد. لا ندعك وأنت شيخنا ونبايع ابنك. وفي رواية أخرى أنه أضاف: إن كنت ترى أن ابنك هذا هو المهدي فليس به. وإن كنت إنما تريد أن

تخرجه غضبا لله وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. فإنا والله لا ندعك وأنت شيخنا ونبايع ابنك(٢٤).

فغضب عبد الله وقال: لقد علمت خلاف ما تقول. ولكن يحملك على هذا الحسد لابني(٢٥).

قال جعفر: والله ما ذاك يحملني. ولكن هذا وإخوته وأبناؤهم دونكم.. إنها والله ما هي إليك ولكن لهم. وإن ابنيك لمقتولان. ثم نهض وتوكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهري فقال: "أرأيت صاحب القباء الأصفر" – "أبا جعفر" – قال نعم قال: فإنا والله نجده يقتله.

قال عبد العزيز: أيقتل محمدا؟ قال: نعم.

قال عبد العزيز: فيما بعد "فقلت في نفسي حسده ورب الكعبة" ثم قال عبد العزيز: ثم والله ما خرجت من الدنيا حتى رأيته قتلهما "محمدا وأباه".

قال: فلما قال جعفر ذلك انفض القوم فافترقوا ولم يجتمعوا بعدها. وتبعه أبو جعفر وعبد الصمد "من أعمام أبي جعفر" فقالا: يا أبا عبد الله "جعفر الصادق" أتقول هذا؟ قال: نعم. أقوله والله وأعلمه..

قالوا: كان أبو جعفر يسميه الصادق لصدق نبوءته.

وقالوا: دعا محمد عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة لمبايعته فاعتل عليه وقال لا أبايع أحدا حتى أختبر عدله.

---

(٢٤) وليس في نص الروايتين بيعة من جعفر الصادق لعبد الله أو لابنه محمد، كما وهم البعض، وإنما فيهما تفضيل للأب على الابن مع رفض البيعة.

(٢٥) وفي رواية أخرى أنه أضاف "ووالله ما أطلعك الله على غيبه".

ولقد ظل أبو جعفر المنصور يذكر هذا لعمرو.

وكان جعفر الصادق إذا رأى محمد بن عبد الله بعد ذلك تغرغرت عيناه وقال: بنفسي هو.. إن الناس ليقولون إنه المهدي. وإنه لمقتول. ليس في "كتاب علي" من خلفاء هذه الأمة.

بايع أبو سلمة الخلال للسفاح. ولم يبايع لأبي جعفر، الأخ الأكبر، لأن أمه كانت أم ولد بربرية تدعى سلامة. وبدأ حكم بني العباس في سنة ١٣٢.

وأذيع في الملأ أن محمد بن علي – أبا السفاح – موصى له بوصية من "أبي هاشم" عبد الله بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب، إذا أحس عبد الله أثر السم الذي سقاه دسيس من الخليفة سليمان بن عبد الملك بن مروان (٩٨) فمال في الطريق إلى حيث مات عند محمد "بالحميمة". وثمة من يعتقد أن الإمامة قد انتقلت بعد استشهاد الحسين إلى أخيه محمد ابن الحنفية "أمه خولة بنت جعفر من بني حنيفة".

وهذه الوصية تغني بني العباس عن الخلاف مع أبناء علي، في أن يكون العباسيون من أهل البيت أو لا يكونون.

بهذا صير بنو العباس محمد بن علي بن عبد الله بن العباس إماما. فلما مات آلت الإمامة إلى ابنه إبراهيم فنودي بأنه "إبراهيم الإمام". فلما قتل إبراهيم بايعوا للسفاح سنة ١٣٢.

بين أبناء علي وبني العباس:

قضى "السفاح" على الأحياء من بني أمية، وبني مروان. فاستحق في التاريخ لقبه. وأدار وجهه للآخرين. فسأل عبد الله بن الحسن عن ابنه محمد "النفس الزكية" وأخيه إبراهيم، فلما علم باختفائهما سكت عن الطلب حينا، ثم عاجله أجله. وولى أبو جعفر سنة ١٣٦. وألح في طلبهما، فأعجزاه هربا.

وللأقرباء، أو الأصدقاء، أولية في سورة السلطة إذا عريت من خشية الله. وأولى الناس بالفتكة البكر منها: الأقرباء إذا خيف أن يصيروا أعداء، والأصدقاء الذين يحتمل أن يقدروا على الإيذاء.. فقال الأولون يغري السلطان بهم الحسد أو الحقد أو الخوف من جانبه،لما يعرفون من دخائل يخشاها. أو لما يتضح لهم من عورات، أو فيهم من مطامع. واستخفاف بالسلطان. الذي رأوه وهو سوقة، أو مطالبة السلطان لهم بإعطائه حقه، أو أكثر من حقه والآخرون أحرى بالخوف والحذر. سدا لذريعة الوثوب وافتراص الفرص. أو شغلا لهم بأنفسهم، أو معالجة من السلطان لما يكابده من الشجن أو الفزع من جراء الحكم، أو من العجز أو الجشع أو ضيق الصدر أو الأفق، وكالسلطان أعوانه.

ولا يتوازن في سدة السلطة إلا القليلون، وقلما ما يتوازنون، وللإمام الصادق في ذلك مقولة معلمة: "إذا كان لك صديق فولى ولاية فأصبته على العشر مما كان لك عليه قبل ولايته فليس بصديق سوء".

قيل لأبي جعفر: "لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو"! فقال "لأن بني مروان لم تبل رممهم بعد. ونحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة ونحن اليوم خلفاء، فليس تتهد هيبتنا في نفوسهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة".

وصاحب السلطة كراكب الأسد – على ما قال أفلاطون – يهابه الناس وهو لمركوبه أهيب.

لهذا أخذ بنو العباس أبناء علي، أخذ ظلوم غشوم، وبطشوا، وغدروا بمن حذروهم من أنصارهم وذويهم، كعبد الله بن علي عم المنصور. وأبي مسلم الخراساني قائدهم. وأبي سلمة الخلال وزيرهم، بمثل ما غدروا بأعدائهم بعد أن أمنوهم.

ولما أعطى أبو جعفر المنصور محمد بن عبد الله أمانا كتب إليه محمد ساخرا: "أي أماناتك هو؟ أأمان ابن هبيرة، أو أمان عمك عبد الله، أو أمان أبي مسلم".. فقد أعطى أبو جعفر عهودا للكل، وقتل الأول والثالث ولم يكن قد قتل الثاني بعد. لكنه كان قد حبسه من سبع سنين

ليقتله بعد أن يقتل محمد بن عبد الله بن الحسن ذاته. فصير خلافته، كالمسبعة، لا يأمن فيها الصديق، أو العدو، أو الصياد، أو الفريسة.

وزاد ضراوة أبي جعفر على أقربائه أن لواحد منهم في عنقه بيعة، على ملأ منهم. كانت حرية أن تمنعهم وتمنعه. لولا ما للشهوة من خدر يطيح بالتوازن، فسولت له نفسه أن يتخلص من البيعة بالخلاص ممن بايعه، وإن كان من قبل يمسك بركابه. بل طوعت له شهوته أن يتخلص ممن قد يشهد ضده حتى لا يراه الناس أو يسمعوه يحكي لهم ما قد رأى وقد سمع.

قال يعقوب بن عربي: "سمعت أبا جعفر يقول في أيام بني أمية ما في آل محمد أعلم بدين الله ولا أحق بولاية الأمر من محمد بن عبد الله. وبايع له. وكان يعرفني بصحبته، والخروج معه.. فلما قتل حبسني عشرين سنة".

* * *

طلب أبو جعفر من عبد الله بن الحسن ابنيه محمدا وإبراهيم. فأنكر مكانهما، فتقاولا. وأغلظ كل لصاحبه، وانصرف الخليفة من المدينة.فبث الجواسيس يأتونه من كل مكان بأخبار بني الحسن.

وفي سنة ١٤٠ قصد أبو جعفر للحج فنزل بالمدينة. ودعا عبد الله بن الحسن وطالبه بولديه.

وكانا يأتيان أباهما معتمين في هيئة الأعراب فيستأذنانه في الخروج فيقول: "لا تعجلا حتى تملكا. إن منعكما أن تعيشا كريمين فلا يمنعكما أن تموتا كريمين".

ولما لم ينل أبو جعفر منالا انصرف من المدينة وأمر بحبس عبد الله، وأهل بيته،فبقوا في السجن ثلاث سنين في دار مروان – دار الإمارة في حكم بني أمية – حتى إذا كانت سنة ١٤٤ ولى أبو جعفر المنصور رياح بن عثمان عاملا على المدينة.

وحج في العام ذاته فتلقاه عامله بالربذة فرده إلى المدينة لإشخاص عبد الله بن الحسن وأهل بيته – بما فيهم محمد بن عبد الله... بن عثمان – شاهد البيعة يوم الأبواء – فكانوا خمسة عشر أخذوا في محامل إلى الربذة. ونظر الإمام الصادق إليهم وعيناه تهملان حتى جرت دموعه على لحيته. واقتيدوا إلى الربذة في الأغلال. ومزقت السياط جسد "محمد بن عبد الله.. بن عثمان" حتى إذا خرج أبو جعفر في محمل، ناداه عبد الله بن الحسن قائلا: يا أبا جعفر. والله ما هكذا فعلنا بأسراكم يوم بدر.. فلوى أبو جعفر رأسه كبرا ولم يعرج. وحمل أهل البيت تلقاء النجف. حتى إذا دخلوا الكوفة حبسوا في قصر كان لابن هبيرة في شرقي الكوفة.. وهدم عليهم البيت بعد ستين يوما. فمات الذين لم يموتوا في أثنائها. ودفن الجميع تحت الأنقاض. وشيخهم عبد الله في الخامسة والسبعين!

وخرج محمد بن عبد الله لليلتين بقيتا من جمادى سنة ١٤٥ فاستولى على المدينة. وخرجت المدينة بأسرها مع محمد.فكان في جيشه علماؤها الفحول. فيهم ابن هرمز شيخ مالك. وابن أبي سبرة، وعبد الله بن عمر العمري، ومصعب بن ثابت الزبيري. أما مالك فاكتفى في الحرب بفتياه أن بيعة المنصور كانت مكرهة، ومن أجلها أصابه ما أصابه[٢٦] من والي أبي جعفر وابن عمه سنة ١٤٦.

وخرج مع محمد موسى وعبد الله ابنا الإمام جعفر الصادق.

وقصد جعفر الصادق إلى محمد في مجلس حربه قال: أتحب أن يصطلم أهل بيتك "يستأصل" قال ما أحب ذلك. قال: فإن رأيت أن تأذن لي، فإنك تعرف علتي. قال محمد: قد أذنت لك.

ومضى جعفر الصادق: فالتفت محمد إلى ابني جعفر وقال لهما: الحقا بأبيكما فقد أذنت لكما. والتفت جعفر فقال: ارجعا فما كنت لأبخل بنفسي وبكما. فحاربا مع محمد أعظم حرب، وكان لعبد الله بلاء ممتاز.

---

(٢٦) مالك بن أنس – عبد الحليم الجندي – طبعة دار المعارف ص٢٣٨ حيث تفصيل الواقعة.

ووجه المنصور إلى المدينة جيشا بقيادة ابن عمه، وولي عهده، عيسى ابن موسى. وفي غرة رمضان خرج إبراهيم أخو محمد واستولى على أكثر من مكان في إقليم البصرة – ثم استشهد محمد في ١٤ من رمضان سنة ١٤٥هـ. واستشهد إبراهيم[٢٧] عند باخمري لخمس بقين من ذي القعدة. وأرسلت رأسه إلى أبي جعفر المنصور، فطوف بها في الآفاق.

واستولى عيسى بن موسى على عين أبي زياد، ضيعة جعفر الصادق التي يقتات منها، ويشرك في ثمرها أهل المدينة.

وسنرى المنصور بعد عامين من انتصار عيسى بن موسى يخلعه من ولاية العهد. ويولي ابنه المهدي سنة ١٤٧. وكان قد حبس عمه عبد الله بن علي من سنة ١٣٨ في دار لتخر عليه فيموت سنة ١٤٧!

وعبد الله عمه وقائده المنتصر على آخر ملوك بني أمية يوم الزاب. لكنه خرج عليه، فأرسل إليه جيشا بقيادة أبي مسلم الخراساني، ولجأ عبد الله إلى أخويه سليمان وعيسى فأخذا له عهدا على المنصور كتبه "ابن المقفع" وفيه: "ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه فنساؤه طوالق. ودوابه حبس. وعبيده أحرار. والمسلمون في حل من بيعته" فأما "أبو مسلم" فسيدعوه أبو جعفر إلى قصره بعد أمان يعطيه إياه ثم يخرج عليه عبيده فيقتلونه أمامه.

---

(٢٧) كان صاحب فقه وأدب. سأل عن صاحب له فقيل تركناه يريد أن يموت فضحك قوم. فقال: لقد ضحكتم منها عربية! قال عز وجل: (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه). يعني يكاد أن ينقض. فوثب أبو عمرو بن العلاء فقبل رأسه وقال: "لا نزل والله بخير ما دام مثلك فينا" وأبو عمرو من أئمة اللغة الأولين.

وأما عبد الله بن المقفع فسيقتله والي أبي جعفر سنة ١٤٢. فيشفي صدر أبي جعفر.

* * *

روى الإمام الصادق ما كان بعد أن هدأت الأحوال. قال: "لما قتل إبراهيم بن عبد الله بباخمري – حسرنا عن المدينة – ولم يترك فينا محتلم حتى قدمنا الكوفة. فمكثنا فيها شهرا نتوقع القتل. ثم خرج إلينا الربيع الحاجب فقال: أين هؤلاء العلوية؟ أدخلوا على أمير المؤمنين رجلين منكم من ذوي الحجي. فدخلنا إليه أنا والحسن بن زيد. فلما دخلنا عليه قال: أأنت الذي تعلم الغيب؟

قلت: لا يعلم الغيب إلا الله. قال: أنت الذي يجبى إليه هذا الخراج؟ قلت: إليك يجبى – يا أمير المؤمنين – الخراج. قال: أتدرون لم دعوتكم؟

قلت: لا.

قال: أردت أن أهدم رباعكم وأروع قلوبكم وأعقر نخلكم. وأترككم بالسراة لا يقربكم أحد من أهل الحجاز وأهل العراق. فإنهم لكم مفسدة.

قلت له: يا أمير المؤمنين إن سليمان أعطي فشكر. وإن أيوب ابتلي فصبر. وإن يوسف ظلم فغفر. وأنت من ذلك النسل.

فتبسم. وقال: أعد علي ما قلت. فأعدت، فقال: مثلك فليكن زعيم القوم. وقد عفوت عنكم ووهبت لكم جرم أهل البصرة. حدثني الحديث الذي حدثتني عن أبيك عن آبائه عن رسول الله ﷺ.

قلت: حدثني أبي عن آبائه عن علي عن رسول الله ﷺ وآله: صلة الرحم تعمر الديار وتطيل الأعمار وإن كانوا كفارا. قال: ليس هذا.

قلت: حدثني أبي. أن الله عز وجل يقول: أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن بتها بتته. قال ليس هذا الحديث.

قلت: حدثني أبي.. أن ملكا من الملوك كان في الأرض كان بقى من عمره ثلاث سنين فوصل رحمه، فجعلها الله ثلاثين سنة.

قال: هذا الحديث أردت. أي البلاد أحب إليك؟ فوالله لأصلن رحمي إليكم.

قلنا: المدينة. فسرحنا إلى المدينة. وكفى الله مؤنته".

في هذا اللقاء دليل على ما يخشاه من بني علي، ومن الصادق بالذات. فما يخشاه من بني علي هو فتنة الناس إذ يجتمعون إليهم. أما ما ينعاه على الصادق – وهو الوحيد الباقي ممن يمكن أن يجتمع بنو علي، والناس، حولهم – فلقد كان خليقا أن تطيب به نفسه لما فيه من مصلحة له. وهو الادعاء على الصادق بأنه يعلم الغيب. فإنه لم يبايع لأحد يوم الأبواء.. بل ذكر أنها "الخلافة" ستكون لصاحب القباء الأصفر وهو أبو جعفر.

لكن الصادق كان حاسما في رده عليه بأنه لا يعلم الغيب إلا الله.

وكان مما يخشاه أن يجبى إلى الصادق خراج بعض الرعية، مما يعطى للإمام، وكان الصادق في ذلك حاسما أيضا. إذ أعلن أن الخراج لا يجبى إلا لأبي جعفر، لأنه أمير المؤمنين. قال: إليك يجبى – يا أمير المؤمنين – الخراج. وجعل التسليم بإمارة المؤمنين يسبق كلمة الخراج، فهذه العبارة بيعة بتمامها والخراج حق من بويع له.

وكان انتقال أبي جعفر من استجوابهم إلى إخبارهم بأسباب دعوتهم، نقلة من الغضب إلى غيره. ومن الاستجواب إلى الوعيد، وإلى الاستعلاء.

لكن الصادق نقله من عالم الكبرياء المظلم، إلى آيات الله التي تطمئن لها القلوب. فجعله – دون أن يشعر – مقارنا في موقفه بمواقف الأنبياء، لعله يهتدي بهم. وذكره كلام ربه

obeikandi.com

جل وعلا. وذكره الشكر والصبر والمغفرة. وذيل ذلك كله بأنه من نسل الذين يغفرون ويشكرون ويصبرون.

بهذا أمكن الرجل الذي قد قلبه من الصخر أن يبتسم. بل أقبل يسأل أن يتعلم. فحدثه الإمام الأحاديث، واحدا بعد واحد، حتى وقف منها عند حديث طول العمر. فلقد كان يرجو أن يطول عمر دولته، التي يخسر من أجلها في كل يوم آخرته، إلا أن يغفر الله له.. فظن أنه بهذا الحديث يجد أمانا لنفسه أو تخفيفا لما تكابده. وعندئذ ظهر ضعف نفسه، وجلال شأن المعلم الذي يتعلم عليه.

ولم يكد الإمام يأخذ زمام الكلام حتى راح يعلمه درسا من الدروس في البداء: وهو أن القضاء الذي يتوقف على الشرط يتحقق عند وقوع الشرط. فهذا ملك وصل رحمه فطالت عمره من ثلاث إلى ثلاثين – وكان أبو جعفر ملكا – ولكم طالت العمر على ملك بنيه وحفدته. فلقد كان كل خلفاء بني العباس بعده منهم،ملكوا خمسة قرون، حتى دمر الظلم دولتهم.

إنما كان أبو جعفر يتداول الإمام الصادق بحذر خليق بما للصادق من كرامة عند الله والناس. وهو صاحب أكبر مدرسة شهدتها حواضر الإسلام في ذلك الزمان: المدينة ومكة والكوفة وبغداد والفسطاط. وكان في الستين من العمر، يروي عنه الآلاف حديث النبي وفقه الصادق وأبيه وأجداده.

والذين يحسنون الظن بالمنصور لا يتصورون حلمه يطيش فيفقد الأمة الإمام الذي لا ينازعه ملكه. وربما جاز للذين لا يحسنون الظن، أن يخالوه يحسب حسابا للأعداد التي لا تحصى من تابعي الإمام. وقد كان أبو جعفر يحسب حساب العلماء.

ومن بطش الحكام بالعلماء ما يدمر الدول.

ومن فداء الأتباع ما يستهان فيه بعرين الأسد. لقد اقتحم الفدائيون من أتباع سنان "شيخ الجبل" خيمة صلاح الدين وهو في عسكره ليصيبوه بخناجرهم في وجهه.

*   *   *

ظاهر من حديث الإمام أنه حدثه في صلة ذوي الأرحام،وإن كانوا كفارا. فما أحراهم بالصلة إن كانوا غير ذلك. ويظهر مما يرويه الطبري أن أبا جعفر كان يود أيامئذ لو نسى الناس ما كان من أهل البيت في حقه. وما كان منه في حقهم.

روى الطبري: لما أتى المنصور برأس إبراهيم بن عبد الله وضعه بين يديه وجلس مجلسا عاما وأذن للناس. فكان الداخل يدخل فيسلم ويتناول إبراهيم فيسئ القول فيه. ويذكر منه القبيح التماسا لرضا أبي جعفر، وأبو جعفر ممسك متغير لونه. حتى دخل جعفر بن حنظلة البهراني فسلم ثم قال "عظم الله أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمك وغفر له ما فرط فيه من حقك" فاصفر لون أبي جعفر وأقبل عليه فقال: أبا خالد. مرحبا وأهلا. فعلم الناس أن ذلك قد وقع منه. فدخلوا فقالوا مثل ما قاله جعفر بن حنظلة.

وربما دل على ذلك الميل ما يرويه عيسى بن رؤبة: لما جئ برأس إبراهيم فوضع بين يدي أبي جعفر بكى. حتى رأيت دموعه على خدي إبراهيم. ثم قال: أما والله إن كنت لهذا لكارها. لكنك ابتليت بي وابتليت بك.

ولقد ترك أبو جعفر الذين تواروا عنه ممن خرجوا مع محمد وإبراهيم، ومنهم الحسين بن زيد، وكان الحسين قد تربى في بيت جعفر الصادق بعد قتل زيد. وكان يسمى "ذا الدمعة الكبيرة" لكثرة بكائه على أبيه وأخيه يحيى. ولم يسائل أبو جعفر ولدي جعفر الصادق "عبد الله وموسى" وقد خرجا مع محمد. وترك علماء المدينة. وترك عيسى بن زيد إذ توارى عنه. ولما قيل له من حرسه أو من المنافقين: ألا تطلبه؟ قال: لا. والله لا أطلب منهم رجلا بعد محمد وإبراهيم: أنا أجعل لهم ذكرا؟

ومن ناحية أخرى ففقه الإمام الصادق يعلم الناس طاعة الإمام العادل. والصادق هو القائل: " لا يستغنى أهل بلدة عن ثلاثة يفزع إليهم في أمر دنياهم وآخرتهم. فقيه عالم ورع. وأمير خير مطاع. وطبيب بصير ثقة، فإن عدموا ذلك كانوا همجا".

وهو فقه في طاعة الخليفة العادل أو الأمير الخير. وأبو جعفر يتمنى أن يظهر في الناس كذلك.

والصادق يقول – ولا نحسبه يقصد إلا أبا جعفر وأبناء عمه – "ما تثبت الدنيا إلا على بني العم المتعاطفين بالبر المتعلقين بالأدب المجتمعين على التناصر". فهذه يد ممدودة بالسلام من الإمام. ودرس للرعية لتسلم العنان لأمير خير. وما أحرى أبي جعفر أن يكونه.

وفي سنة ١٤٧ عزم المنصور وهو راجع من موسم الحج أن يسير الإمام الصادق من المدينة إلى العراق فاستعفاه الإمام فلم يعفه وحمله معه. ولكن الصادق كان يقبل عليه بمقدار فليست دنيا أبي جعفر لتجدر بالمقارنة.

وفي ذات يوم أرسل إلى الصادق: لماذا لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس؟

فأجابه: "ما عندنا ما نخافك عليه ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له. ولا أنت في نعمة فنهنيك عليها. ولا نعدها نقمة فنعزيك عليها. فلم نغشاك"؟ ويجيب أبو جعفر: تصحبنا لتنصحنا. ويجيب الإمام:

"من أراد الدنيا فلا ينصحك ومن أراد الآخرة فلا يصحبك" فالذي يريد الدنيا يسير في ركب صاحبها فلا يقول كلمة لله. والذي يريد الآخرة يعتزل مجالس رجل يعجزه عمله ويعميه أمله عن طريق الآخرة.

وصدق "جعفر الصادق" ولم يكذب أبو جعفر المنصور.

فلقد كان أحوج الناس إلى النصيحة. وكانت صحبة الصادق له أمانا من النار.

* * *

دخل عليه سفيان الثوري يوما فقال له: اتق الله فقد ملأت الأرض ظلما وجورا فطأطأ رأسه وقال: ارفع حاجتك.. قال سفيان: حج عمر فقال للخازن: كم أنفقنا من بيت المال. قال: بضعة عشر درهما. وأرى هنا أموالا لا تطيق الجمال حملها..

وخرج سفيان.

ولما راجع المنصور كاتبه ليقتل سفيان قال له: "اسكت يا أنوك "أحمق". فما بقى على الأرض من يستحي من غير "مالك" وسفيان"[٢٨].

---

(٢٨) يروي مالك أنه استدعاه فدخل فوجده عنده ابن أبي ذؤيب (١٥٩) والقاضي ابن سمعان فسأل مالكا عن حكمه "حكم المنصور" هو عدل أم جور؟ فاستعفاه مالك من الجواب. فسأل ابن سمعان عن حكمه فأثنى عليه. فسأل ابن أبي ذؤيب فأجاب: "أنت والله عندي شر الرجال. استأثرت بمال الله ورسوله وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين وأهلكت الضعيف وأتعبت القوي. وأمسكت أموالهم. فما حجتك غدا بين يدي الله" قال المنصور: ويحك. ما تقول؟ قال: رأيت أسيافا وإنما هو الموت ولا بد منه. عاجله خير من آجله.

قال مالك. ثم خرجا وجلست. فقال المنصور: أجد رائحة الحنوط عليك؟ قلت: أجل لما نمى إليك عني ما نمى وجاءني رسولك ظننت أنه القتل.. قال: أو ما تراني أسعى في أود الإسلام وإعزاز الدين عائذا بالله. يا أبا عبد الله انصرف إلى مصرك راشدا مهديا.. وإن أحببت ما عندنا فنحن ممن لا يؤثر عليك أحدا. قلت: إن يجبرني على ذلك أمير المؤمنين فسمعا وطاعة. وإن يخيرني اخترت العافية.. قال: انصرف إلى أهلك معافى مكلوءا. فلما أصبحنا أمر بصرر دنانير في كل صرة خمسة آلاف درهم ثم دعا برجل من شرطته فقال له: تدفع إلى كل رجل منهم صرة. أما مالك إن أخذها فبسبيله. وإن ردها عليك فلا جناح عليه. وإن كان ابن سمعان ردها، فأتني برأسه وإن أخذها فهي عافيته. وإن أخذها ابن أبي ذؤيب فأتني بأسه وإن ردها عليك فبسبيله.

قال مالك: أما ابن سمعان فأخذها وسلم. وأما ابن أبي ذؤيب فردها وسلم. وأما أنا فكنت والله محتاجا إليها فأخذتها. ثم رحل أبو جعفر متوجها إلى العراق.

وروى مالك أنه استدعاه يوما وعبيد الله بن طاووس بن كيسان. وكان طاووس فقيه اليمن حتى مات في سنة ١٠٦ "طاووس بن كيسان تلميذ ابن عباس جد أبي جعفر" قال أبو جعفر: حدثني حديث أبيك. قال عبيد الله حدثني أبي أن أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله في سلطانه فأدخل عليه الجور في حكمه. قال مالك فضممت ثيابي خوفا من أن يصيبني دمه.. فقال المنصور ناولني هذه الدواة.. ثلاث مرات. فلم يفعل. قال أبو جعفر لم لا تناولني؟ قال أخاف أن تكتب بها معصية فأكون قد شاركتك فيها. قال: قوما عني. ذلك ما كنا نبغي قال مالك: فما زلت أعرف لابن طاووس فضله منذ ذلك اليوم.

ويروي الإمام الشافعي حول أساطين جامع عمرو عن عمه محمد بن علي بن شافع مثل ذلك. عندما قال ابن أبي ذؤيب أخذت المال من غير حلة وجعلته في غير أهله، وأن المنصور رد عليه بقوله: والله لولا أنا لأخذت أبناء الفرس والروم والديلم هذا المكان منك فوالله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك.

أما عمرو بن عبيد فكان أبو جعفر المنصور يستقبله بالترحاب وينشد في نزهته الشعر "كلكم يمشي رويد. كلكم طالب صيد. غير عمرو بن عبيد" وهو زعيم المعتزلة الذين يطلقون ألسنتهم في الملوك والصحابة. دخل عليه فقال: "إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها واذكر ليلة تتمخض عن يوم لا ليلة بعده" قال الربيع بن يونس حاجب المنصور: يا عمرو غممت أمير المؤمنين. قال عمرو للمنصور: "إن هذا صحبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يوما واحدا. وما عمل وراء بابك بشئ من كتاب الله ولا سنة نبيه" قال أبو جعفر المنصور: فما أصنع، قلت لك خاتمي في يدك فتعال وأصحابك فاكفني. قال عمرو: لا ادعنا بعدلك، تسخ أنفسنا بعونك، ببابك ألف مظلمة أردد منتها شيئا نعلم أنك صادق. ولما مات عمرو كان أول احد من الرعية، وآخر واحد، ينظم في رثائه الخليفة شعرا. ومن أبياته:

وإذا الرجال تنازعوا في شبهة وصل الحديث بحجة وبيان

ولو أن هذا الدهر أبقى صالحا أبقى لنا عمرا أبا عثمان

والجاحظ من تعصبه لزعيمه يقول فيه: "إن عبادته تفي بعبادة عامة الفقهاء والمحدثين".

وستبقى صلة المعتزلة بالدولة العباسية طويلا بعد وفاة عمرو وأبي جعفر لأن المعتزلة يمدون إلى بني العباس سببا علميا وسببا سياسيا قالوا: إن واصلا "وهو زعيمهم مع أخي زوجته "عمرو بن عبيد" أخذ أصوله عن أبي هاشم (٩٨) عبد الله بن محمد بن الحنفية – بن علي بن أبي طالب وكان أبو هاشم قدريا مثلهم – ينفي القدر – ويضيفون أن محمد بن عبد الله بن عباس تعلم على أبي هاشم وتلقى منه الوصية بالإمامة بعده – دون بني علي بن أبي طالب – عندما أحس أبو هاشم بدنو أجله إذ دس السم إليه سليمان بن عبد الملك.

وإذا كان هذان الإمامان اللذان ليس في الأرض غيرهما، تلميذين في مجلس الإمام الصادق. يلتمسان علمه ويترسمان هديه. فما أحوج الخليفة إلى أن يقارب مجلس الصادق بأن يدعوه إلى مجلسه.

الحق أن أبا جعفر كان من فزعه من الآخرة وحاجته إلى رضا الرعية صادق الرغبة في التقرب إلى العلماء، ومن أجل ذلك كان يرضى منهم ما يصك مسامعه من النقد وإن كان لا يستجيب له.

طلب ذلك من صديقه عمرو بن عبيد، والمعافري[٢٩]، فاعتزلاه لكثرة الظلم على بابه كما قالا له. وهز ضميره ابن أبي ذؤيب وتوعده بجهنم، وكمثله صنع ابن طاووس فقبل استعفاء الصديقين. وأقر صدق ابن أبي ذؤيب[٣٠] فقال له: لولا أنني أعلم أنك صادق لقطعت عنقك، كما ارتاح لابن طاووس مع رفضه أن يطيعه مخافة أن تؤدي طاعته إلى المشاركة في معصية.

ولقد رفض أبو حنيفة أن يجلس للقضاء في دولته بحجة الخوف من أن يظلم الناس إرضاء لحاشية يحب أبو جعفر أن يكرمها،وما إكرام الحاشية إلا الحكم لمصلحتها فيما ترتكب من مظالم، لحساب صاحب السلطان أو نتيجة إغضائه. وهذا رد فقهي من إمام أهل الرأي يتضمن التنديد بأبي جعفر وصحبته.

---

(٢٩) لما استخلف أبو جعفر قصد إليه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري قادما من القيروان وكان زميلا له في عهد الطلب، فعرض عليه المقام ببغداد. وقال له كيف رأيت ما وراء بابنا؟ فأجابه: رأيت ظلما فاشيا وأمرا قبيحا. قال: لعله فيما بعد من بابي. فأجابه: بل كلما قربت استفحل الأمر وغلظ. قال: ما يمنعك أن ترفع ذلك إلينا وقولك مقبول عندنا؟ فأجابه: رأيت السلطان سوقا. وإنما يرفع إلى كل سوق ما ينفق فيها. قال: كأنك كرهت صحبتنا؟ فأجابه: ما يدرك المال والشرف إلا من صحبتكم. ولكني تركت عجوزا وإني أحب مطالعتها.

(٣٠) يفضل أحمد بن حنبل بن أبي ذؤيب على مالك لمجاهرته بالحق في وجه أبي جعفر. وتقدير الشافعي لابن أبي ذؤيب يتراءى في رأي تلميذه أحمد. وفي رواية الشافعي عن عمه في صدده. أما تقدير مالك فكان عن مشاهدة أو مشاركة.

وصحبة الظالم وجه مشاركة في الحكم، وربما في الظلم، بتوطيد الأمور للظالم أو بتمكينه أن يبلغ غرضه، أو تقديم مصلحته على مصلحة المحكومين. وفيها شهادة له في الناس. فهي شركة خاسرة في الدنيا والآخرة.

والإمام الصادق هو القائل: "أيما مؤمن قدم مؤمنا إلى قاض أو سلطان جائر، فقضى عليه بغير حكم الله، فقد شركه في الإثم" وعلي يقول: "كفاك خيانة أن تكون أمينا للخونة".

وذات يوم دخل زياد الفندي على الصادق فقال له: وليت لهؤلاء؟ – يقصد أصحاب السلطان – قال: نعم. لي مروة وليس وراء ظهري مال. وإنما أواسي إخواني من عمل السلطان. فقال "يا زياد أما إذ كنت فاعلا، فإذا دعتك نفسك إلى ظلم الناس عند القدرة على ذلك فاذكر قدرة الله عز وجل على عقوبتك وذهاب ما أتيت إليهم عنهم، وبقاء ما أتيت إلى نفسك عليك".

وفي واحد من اللقاءات يقول الصادق لأبي جعفر: "لقد بلغت ثلاثة وستين، وفيها مات أبي وجدي" ليعلن له الاستخفاف بالموت الذي يتهدد الناس به، وأن الإمامين اللذين قضيا – زين العابدين والباقر – لم يعمرا أكثر مما عمر، ولكل أجل كتاب. فماذا يهاب؟ إنه يطلق إعلانه بلغة عالية، وفي هدوء قادر على أن يطفئ جذوة رجل خصم. وفي توكل على الله يبلغه مأمنه. فهو إذا واجهه واجهه والله معه.

أرسل إليه أبو جعفر ذات يوم رزام بن قيس يدعوه للقائه، ففصلا عن المدينة، حتى بلغا النجف فنزل جعفر عن راحلته فأسبغ الوضوء وصلى ركعتين ثم رفع يديه وهو يقول: "اللهم بك أستفتح، وبك أستنجح، وبمحمد عبدك ورسولك أتوسل. اللهم سهل حزونته وذلل لي صعوبته وأعطني من الخير أكثر مما أرجو واصرف عني من الشر أكثر ما أخاف".

ثم ركب راحلته حتى إذا بلغا قصر المنصور، أعلم المنصور بمكانه، فلم يحجبه قليلا أو كثيرا، بل تفتحت الأبواب. ورفعت الستر. فلما قرب من المنصور قام إليه فتلقاه. وأخذ بيده وما شاه. حتى انتهى به إلى مجلسه. ثم أقبل عليه يسأله عن حاله.

وذات يوم عزم المنصور على حاجبه الربيع بن يونس أن يدعوه، وكانت تبرق في أسارريره بوارق الخطر. فلما خرج من اللقاء بسلام سأل الربيع الإمام الصادق عن الدعاء الذي دعا به ربه فأكرمه الله في لقاء المنصور. فأخبره به. فالصادق يستحضر رضا بارئ السماء في كل آونة وتعينه السماء.

ومع ذلك السلام الذي نشده الصادق وعلمه، يروي الطبري أن المنصور لما عزم الحج –في آخر أيامه – دعا ريطة بنت أبي العباس زوج المهدي، وكان زوجها بالري، فأوصاها بما شاء ودفع إليها مفاتيح غرفة بها خزانته، وأمرها ألا تسلمها إلى المهدي إلا عندما يجئ نبأ موت المنصور. فلما مات ذهبت ريطة والمهدي ففتحا الغرفة فإذا بقتلى من بني علي في آذانهم رقاع. فيها أنسابهم. وهم بين شيوخ وشباب وأطفال. فلما رأى المهدي ذلك ارتاع. فحفرت لهم مقبرة دفنوا فيها ثم بنى عليهم دكانا.

لم يكن المنصور يكتفي بأن يقول مقالة لويس الرابع عشر بعد ثمانية قرون "أنا الدولة". ذلك المقال الذي نبذه واستهجنه الساسة والمؤرخون في الشرق والغرب، بل كان المنصور يدعى دعوى أبعد وأشد،كان يخطب فيقول: "إنما أنا سلطان الله في الأرض" فيجمع في يده ما عجز عنه الأباطرة والبابوات جميعا! فإنما تقاسم الإمبراطور والكنيسة الأشياء،في القرن التاسع للميلاد، فصار لقيصر ملك الأرض وللكنيسة مملكة السماء. أما أبو جعفر المنصور فادعى في الأرض سلطان السماء. وأي شئ يستبعد على صاحب هذه الدعوى!!

*　　*　　*

وأبو جعفر – مع ذلك – ليس إلا واحد من المستبدين الذين يزخر ثبت التاريخ بخطاياهم أو ضحاياهم.

إليك مثلا واحدا من تاريخ الدولة التي تلقى إليها الديمقراطية الغربية مقاليدها: لقد أرسل "هنري الأول" ملك انجلترا فرسانه يقتلون "توماس" بيكت رئيس أساقفة لندن من أجل خلافه معه في ولاية العهد لابنه في الثلث الأخير من القرن الثاني عشر. وفي الثلث الأول من القرن السادس عشر بعث "هنري الثامن" ملك انجلترا "توماس" ولزي رئيس أساقفة يورك إلى السجن

ريثما يصدر عليه حكم الإعدام فمات قبل أن يعدم. ثم أرسل إلى المقصلة "توماس" مور كبير قضاته من أجل خلافهما له في زواجه وطلاقه.

*　　*　　*

ولقد كان فزع المنصور من أجل دولته حريا أن يخرجه عن الاتزان فيستحوذ عليه الشيطان، لولا إمساك الإمام الصادق بالأعنة كلها كلما لقيه، فكان يضعه في موضع النصفة.

والذين يهابون لقاء الملوك ضعفاء عن إخفاء دخائلهم، من البغض أو الحسد أو الخوف. والذين ليس في قلوبهم من ذلك شئ يشجعون. أما الأئمة فالله معهم. وهو حسبهم.. وأين من هذا الذي معه مالك الأرض والسماء، ملوك دولة أو إقليم!

من أجل ذلك يشجع الرجال الصدق إذ يستشهدون، ومن أجله نظر الصادق إلى أبي جعفر في شجاعة وصدق. فكان يلزمه القصد والنصفة.

ولا عجب إذا كان أبو جعفر في دخيلة نفسه، يريد ليحفظ ظاهر الأمر في وقار من لا يسفك الدم، إلا بقدر. والصادق حجة له في ثبات حكمه، مذ كان لا يرى بيعة غيره.

وأبو جعفر عليم بما يجري في ملكه:وهو من مطالع حكمه يستعمل العسس في كل اتجاه. فلم يلبث سنين حتى أصبح يعلم بكاء بنت مالك بن أنس من الجوع في داخل الدار، وهي وأبوها يكتمانه إلا على الله سبحانه!

وأبو جعفر هو القائل عن أوتاد حكمه: ما أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم. وهم أركان الدولة لا يصلح الملك إلا بهم. أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم. والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي. والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية. ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول: آه آه. قيل: ما هو يا أمير المؤمنين قال: صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة.

الفصل الثاني

الرجلان

"يا بني: إن الذين حولنا لو يعلمون عن علي ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده"

عبد العزيز بن مروان

الحق أن الاختلاف كان شديدا بين الإمام جعفر الصادق وبين الخليفة أبي جعفر المنصور: في طبيعتهما وطريقتهما وغاياتهما.

هذا صاحب سلطان، فيه شركاء متشاكسون، تركبه هموم الدنيا، وتلبس جلده شياطينها. يترافع لينحني الناس له، ويجمع دنياهم في قبضته. شحيح النفس منقبض اليد، "دوانيقي"، يحسب بالدرهم والدانق[٣١] تبدو منه صعقات السلطان عند الفزع. وتحوله مطامعه من الدماثة إلى الشراسة. فلا يطمئن له أحد، أقام دولته على أشلاء الأعداء، وفزع الأقرباء، وجماجم أهل البيت، في خزائنه!

أمام الإمام فرجل سلم لكل رجل: يتواضع ليرفع الناس كلهم، ولا تستعبده الدنيا قيد أنملة. يعطي ولا يأخذ. ويحي أنفس الناس، بالعطاء المسماح من العلم، والجاه، والمال، "ما قال لا قط إلا في تشهده". فهكذا كان أبوه وجده.

والحق كذلك أن المنصور – بنجاحه في إقامة أكبر دولة في التاريخ الوسيط – يعتبر واحدا من ثلاثة لا يعرف لهم التاريخ الإسلامي رابعا. ولا ينزل بهم التاريخ العالمي عن أعظم المؤسسين للدول.

---

(٣١) الدانق سدس درهم.

أولهم معاوية بن أبي سفيان، وثانيهم عبد الملك بن مروان، مصايرهم متشاكلة. ووسائلهم متشابهة، وخصامهم لأهل البيت أساس دولتهم. ونجاحهم في دنيا السلطة مقطوع القرين:

بدءوا علماء، وانتهوا ملوكا كالملوك الأعاجم! والإسلام فضل من الله، يسخر لخدمته من يشاء. ولو مال عن الجادة رجل، فإنما يخذل نفسه ولا يصيب الإسلام بسوء.

لقد أخطأ معاوية في إقامة دولته وفي حربه. وكان لزاما أن يقوده خطؤه إلى أن يجعل الدولة "هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل". فيكون ابنه يزيد أشأم وألأم خلف لسلف. لكن أحدا لا يتنازع في أن دولته – وإن لم تمثل دولة الدين – قد انتشرت في البر والبحر ونشرت الإسلام وجاهد في غزواتها الصحابة وبنوهم والعلماء والفقهاء، بل غزا وجاهد فيها بين جيوش المسلمين أبو الشهداء، الحسين بن علي، في فتح أفريقية وغزو جرجان وطبرستان والقسطنطينية.

ومعاوية هو الذي مهد لدولة ابن عمه مروان بن الحكم.

وعبد الملك بن مروان هو المؤسس الحقيقي للدولة المروانية التي أينعت فروعها بالأندلس وأبقت الإسلام في أورية ثمانمائة عام، لتهيئ للحضارة الحديثة أن تنطلق من جامعات الأندلس وجوامعها. وهو عم عمر بن عبد العزيز وصهره.

وعمر: خامس الراشدين في مدة خلافته. الذي كتب لعامله على المدينة يوم ولي الخلافة: اقسم في ولد فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار فقد طالما تخطتهم حقوقهم. وقال معلنا حق علي وباطل بني أمية ومروان "كان أبي[٣٢] إذا خطب فقال من علي تلجلج. فقلت: يا أبت إنك تمضي في خطبتك فإذا أتيت على ذكر علي عرفت منك تقصيرا؟ قال: أو فطنت إلى ذلك؟ يا بني إن الذين حولنا لو يعلمون من علي ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده..".

---

(٣٢) عبد العزيز بن مروان بن الحكم، عينه عبد الملك على مصر وأفريقية. وهو الذي بنى مدينة حلوان ضاحية الفسطاط – القاهرة. وفيها عاش عمر بن عبد العزيز زمانا. وجيوش أفريقية هي التي فتحت الأندلس بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير.

لكن أبا جعفر كان أثقل الثلاثة حملا. إذا كان معاوية وعبد الملك قد سبقاه ففصلا بين الدين والدولة فجزأا نظرية الدولة الإسلامية، وكان هو قد سار على الدرب الذي اختطاه، إن المعارك التي خاضها من أجل دولته كانت أوسع مدى.

ففزعه من أبي مسلم وجنده لم يكن إلا رجع الصدى لصوت يتصايح في آفاق حياته، وأعماق ذاته: أنهم سرقوا الدولة من أبناء علي. ومن هنا خوفه المستمر من انتقاض أهل خراسان الذين جاءوا لمبايعة "الرضا من آل محمد". وأهل البيت أولى منه في أنظار الذين جاءوا به وبأخيه إلى السلطة.

وخوفه من أعضاء بتيه أشد. فلقد كان عمه عبد الله بن علي قائد جيش الشام، لكنه خرج عليه، وأخمد فتنته أبو مسلم الخراساني، حتى إذا استسلم – على عهد – حبسه أبو جعفر ليقتله بعد زمن من قتله أبا مسلم ذاته. وكذلك غدر بعيسى بن موسى الذي انتصر على محمد وإبراهيم فسلبه حقه في ولاية العهد، وولى ابنه المهدي عهده. فكان غدره كهيئة ما غدر عبد الملك بعمرو بن سعيد الأشدق في ولاية العهد، قائلا: "ما اجتمع فحلان في شول إلا أخرج أحدهما صاحبه".

وما كان نقض معاوية عهده مع الحسن بن علي، إلا درس المعلم الأول للرجلين: أن يستعملا الزمن. وأن ينتهزا الفرص. وأن يحركا الحوادث بدهاء: وأن يقطفا الثمر: ثمرة ثمرة.

وأبو جعفر لا يتردد في إعلان التشابه بينهم وفي تعطشه للدم. فيعلن في الناس أن "الملوك ثلاثة: معاوية وكفاه زيادة. وعبد الملك وكفاه حجاجه. وأنا. ولا كفاة لي".

كأنما لم يكن فيما سفكه كفاية. فكان يريد أن يسفك له دما أكثر سفاحون أصغر!

الواقع أن أزمات أبي جعفر كانت آخذة بخناقة من كل صوب. فهي في نفسه، وفي بيته، وفي دولته، وفي صلته بالأمة: أن كانت القوة العسكرية التي أجاءته إلى الحكم، قد تخلت عنه بل حملت السلاح ضده. وكانت القوة الفكرية التي قامت عليها الدولة، قد صار أصحابها

obeikandi.com

فرائس لـه. وكانـت القوة العصبية، قـوة أسـرته، تتـرنح بخـروج عمـه عبـد الله وقتلـه. وبمغامراتـه للاستئثار لبنيه بالخلافة دون سائر أهله.

فإذا كان ثمة من أحبه، فإن حبهم كان أقبح من البغض، مذ كانوا يؤلهونه، فيكفرون أنفسهم ويفضحونه، بل كادوا يقتلونه، يوم أحاط الراوندية بقصره فلم يمكنه الله منهم إلا بمساعدة عدو كان يطلب رأسه، هو معن بن زائدة الشيباني. وكان معن حريا أن يقتله في وطيس المعركة. حتى الذي أنجاه كان عدوا له!

وفي سنة ١٤٥ انتفضت خراسان فقتلت جيوشه من أهلها سبعين ألفا وأسرت بضعة عشر ألفا.

ولم يكن شغله بالجيوش المحاربة في المشرق أو في جزيرة العرب أهم أشغاله. ففي أفريقية خرج عليه محمد بن الأشعث والي أفريقية، فجرد عليه جيشا بقيادة الأغلب بن سالم، وسيقتل الأغلب بعد سنين سنة ١٥٠. ولم ينهزم الخوارج إلا بعد أن خاضوا ثلاثمائة وخمسة وسبعين وقعة! وأمام جيش قوامه خمسون ألفا.

كل أولئك وهو من شح نفسه، ومن اصطحاب جماجم أهل البيت في خزائنه، ف يأمر مريج. يحسب أن كل صيحة عليه هي العدو. وأن كل خروج عليه يدعو الجميع ليخرجوا. وهم على خروج قادرون.

مع كل ذلك نجح أبو جعفر بالحذر والغدر ومعاجلة الخصوم. فاستبقى دولته لتكون أطول الدول الإسلامية عمرا. وأبعدها في الحضارة العالمية أثرا.

لكن التاريخ – وقانونه الاستقامة – وطبيعة الأشياء – وقانونها "لكل فعل رد فعل، مساو له في المقدار، ومضاد له في الاتجاه" – لم يتركا أبناءه وحفدته دون عقاب. وكأنما كان طول عمر دولته تطويلا للعقاب عليهم وتكثيرا لما ينزل بهم.

* * *

كان من لوازم السلطة أو علامات عدم الثقة بالنفس أو بالغير، أن تتراءى من أبي جعفر في لقائه لأهل البيت أو التعامل معهم نزعات المستوفز الحذر، أو ظاهر الاستعلاء عند مواجهة الأعداء، أو من يضعهم في مواضع الأعداء لكن الإمام "الصادق" كان يمسك بالزمام فيرد الخليفة دائما إلى حيث يطلب الموعظة، أو العلم.

ومن إمساك الزمام في أحد هذه اللقاءات إمساك الخليفة ذاته أن يميل على أهل البيت. فيقول له "لا تقبل في رحمك وأهل الرعاية من أهل بيتك من حرم الله عليه الجنة وجعل مأواه النار. فإن النمام شاهد زور وشريك إبليس في الإغراء بين الناس. فقد قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) ونحن أنصار وأعوان. وللملك دعائم وأركان، ما أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، وأمضيت في الرعية أحكام القرآن، وأرغمت بطاعتك الله أنف الشيطان. وإن كان يجب عليك في سعة فهمك وكثرة علمك ومعرفتك بآداب الله أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك فإن الكافي ليس بالواصل. إنما الواصل من إذا قطعته رحمه وصلها. فصل رحمك يزد الله في عمرك،ويخفف عنك الحساب يوم حشرك".

ويقول المنصور: قد صفحت عنك لقدرك. وتجاوزت عنك لصدقك. فحدثني عن نفسي بحديث أتعظ به ويكون لي زاجر صدق عن الموبقات.

وبهذا السؤال انتشل المنصور نفسه من موقع قاطع الرحم، إلى موضع المواسي لذوي القرابة، ومكانة طالب الموعظة، فأدلى بها إليه الإمام.

قال: "عليك بالحلم فإنه ركن العلم. واملك نفسك عند أسباب القدرة. فإنك إن تفعل ما قدرت عليه كنت كمن شفى غيظا وداوى حقدا، وأحب أن يذكر بالصولة. واعلم أنك إن عاقبت مستحقا لم يكن غاية ما توصف به إلا العدل. والحال التي توجب الشكر أفضل من الحال التي توجب الصبر".

تلك آداب الله، وأسباب الحكم الصالح، وملاك السيطرة للحاكم المسلم على قلوب الرعية.

وظاهر أن أبا جعفر كان يتظاهر بالاستعلاء إذ يدعي الصفح، ولي لديه تهمة.. ولو كانت عنده تهمة للصادق لما طلب الموعظة إليه.

وللملوك سماعات، أو أبواق دعايات،منتشرة في الرعية، تلتقط موجات الرضا والغضب، والهدوء والقلق،وتبث نظائرها، حسب الحاجة. والنمامون كثر، كالفراشات التي تدور حول النور، تلتمس الدفء أو الظهور. ولأبي جعفر جهاز لا يني عن استعماله ليروع خصومه، أو ليجعلهم في قبضة يده...

فلقد يدس من أجهزته دسيسا بعد دسيس على بني الحسن، والحسين،مثل أنيدعو ابن مهاجر ذات يوم فيقول له: خذ هذا المال وإيت المدينة والق عبد الله بن الحسن وجعفر بن محمد "الصادق" وأهل بيتهم وقل لهم: إني رجل من خراسان من شيعتكم وقد وجهوا إليكم هذا المال. فادفع إلى كل واحد منهم على هذا الشرط. كذا وكذا. فإذا قبض المال فقل إني رسول. وأحب أن تكون معي خطوطكم بقبض ما قبضتموه مني... وذهب ابن مهاجر. فلما رجع قال له أبو جعفر ما وراءك؟ قال: أتيت القوم وهذه خطوطهم ما خلا جعفر بن محمد. قال لي: يا هذا اتق الله ولا تغرن أهل بيت محمد. فإنهم قريبو العهد بدولة بني مروان. وكلهم محتاج. فقلت: وماذا أصلحك الله. فقال: ادن مني. فدنوت فأخبرني بجميع ما جرى بيني وبينك كأنه ثالثنا.

قال المنصور: يا ابن مهاجر إنه ليس من أهل بيت نبوة إلا وفيهم محدث. وإن جعفر بن محمد محدثنا اليوم.

فالصادق يكشف للمنصور ودسيسه، حقائق يعلمونها، وينبههما على ألا يورطا أهل البيت من جراء حاجاتهم. يريد لأهله السلامة. وللخليفة الاستقامة، وللأمة الطمأنينة. وفي كل ذلك خير لأبي جعفر المنصور.

* * *

ولقد كان المنصور – نفسه – يجعل الصادق حجة من حججه، وإذا فاخر أهل البيت فاخرهم به!

كتب إليه محمد بن عبد الله "النفس الزكية" يدعوه ليبايعه، وعيره بأمهات العباسيين لأنهن أمهات ولد. وأم المنصور بربرية تدعى سلامة، يتردد اسمها على ألسنة الذين فاخروه. فتولى المنصور كبره في الرد على محمد. ولم يدع الفرصة تفوته ليستفيد حجة من مكانة الإمام الصادق. قال فيما قال: "وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل من علي بن الحسين زين العابدين. وهو لأم ولد. ولهو خير من جدك حسن بن حسن. وما كان فيكم بعده مثل محمد بن علي الباقر وجدته أم ولد، ولهو خير من أبيك. ولا مثل ابنه جعفر. وجدته أم ولد، وهو خير منك".

وغض المنصور طرفه عن أم الولد في شجرة الباقر "شاه زنان" بنت كسرى ملك الفرس. وأين منها – بعد إذ أسلمت – سلامة!

على أن اللقاءات – أو الاحتكاكات – بين الرجلين لا تتوقف.

فهذان قطبان. لكل منهما عالمه. وهما ضدان لهما مستويان. والشرف فيهما لرجل الدين والزهد والعلم. والملوك أحوج إلى العلماء من العلماء إلى الملوك.

وأبو جعفر حريص غدر، يسلط على الصادق من وقت لآخر، وف يم كان بعد آخر، وجوها من التهديد لشخصه والاتهام لولائه والإزراء بعلمه.

يقول له ذات يوم في لقاء له بالكوفة: أنت يا جعفر ما تدع حسدك وبغيك وفسادك على أهل البيت من بني العباس. وما يزيدك الله بذلك إلا شدة حسد ونكد، ما تبلغ به ما تقدره. فيجيبه الصادق: "والله ما فعلت شيئا من ذلك. ولقد كنت في ولاية بني أمية – وأنت تعلم أنهم أعدى الخلق لنا ولكم، وأنه لا حق لهم في هذا الأمر – فوالله ما بغيت عليهم ولا بلغهم عني شئ من

جفائهم الذي كان لي. وكيف أصنع هذا الآن. وأنت ابن عمي. وأمس الخلق بي رحما، وأكثر عطاء وبرا فكيف أفعل هذا".

والصادق بهذا يسجل للخليفة بره. ويقدر له أولية ذوي الأرحام عنده في البر بهم، ويقرر له حقه في الخلافة.. وليس للمنصور فوق ذلك طلبات. وبهذا يستل الضغن من صدره، ليدعه في ميدانه الذي يسره الله له.

ومع ذلك يعاد المشهر في بغداد، بعد سنة ١٤٥، فيستحضره المنصور لمواجهة جديدة.

يقول له: يا جعفر. ما هذه الأموال التي يجبيها لك المعلى بن خنيس؟

قال الصادق: معاذ الله ما كان من ذلك شيء.

قال المنصور: تحلف على براءتك بالطلاق والعتاق.

قال الصادق: نعم أحلف بالله ماكان من ذلك شئ.

قال المنصور: بل تحلف بالطلاق والعتاق.

قال الصادق: ألا ترضى بيميني: الله الذي لا إله إلا هو!

قال أبو جعفر: لا تتفقه علي.

قال الصادق: وأين يذهب الفقه مني؟

قال المنصور: دع عنك هذا فإني أجمع الساعة بينك وبين الرجل الذي رفع عنك هذا حتى يواجهك.

فأتوه بالرجل..

قال الصادق: تحلف أيها الرجل أن الذي رفعته صحيح؟ قال: نعم. ثم بدأ باليمين، قال: والله الذي لا إله إلا هو الغالب الحي القيوم.

قال الصادق: لا تعجل في يمينك فإني أستحلفك.

قال أبو جعفر: ما أنكرت من هذه اليمين؟

قال الصادق: إن الله تعالى حي كريم إذا أثنى عليه عبده لا يعاجله بالعقوبة.ولكن قل أيها الرجل: أبرأ إلى الله من حوله وقوته. وألجأ إلى حولي وقوتي. إني لصادق بر فيما أقول.

قال المنصور للرجل: احلف بما استحلفك به أبو عبد الله.

قال راوي الخبر: فحلف الرجل. فلم يتم الكلام حتى خر ميتا. فارتعت فرائص المنصور. وقال للصادق: سر من عندي إلى حرم جدك إن اخترت ذلك. وإن اخترت المقام عندنا لم نأل جهدا في إكرامك. فوالله لا قبلت بعدها قول أحد أبدا.

وأين يذهب الفقه من إمام المسلمين،وهو الذي يوجه اليمين، ومن حقه صياغتها!! وفي الصيغة ما ذكر المفتري بعظم افترائه، وبالخالق سبحانه (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا). ومن الإنساني، ومن جلال مقام الإمام عند الله والناس، أن يخر صريعا من يفتري على الله وعلى الإمام، في مجلس الخليفة.

بهذه الآية هدى جبار السموات جبارا على الأرض لا يطأطئ رأسه. فإذا حركها عندما يناوشه الذباب سأل حضاره كالمستنكر: لم خلق الله الذباب!! وكان الصادق حاضرا يوما فأجاب: ليذل الله به الجبابرة.

ولئن كان في وجود الذباب في المجلس تذكرة للجبابرة، ففي سقوط المفتري على الإمام بين أيديهم آية ما بعدها آية.

وكما يضمن أبو جعفر طاعة الإمام بالبغتات يصطنعها من حين لآخر، لا يتورع عن محاولة إفحام الإمام، بين علماء العصر، أو تسخير أعظم علماء العراق، لينصب منه شركا يوقع فيه الإمام! وليس هوى أبي جعفر مع أي منهما. ولا بأس عنده إذا أعجز كل منهما، أو أحدهما، صاحبه.

وإن المرء ليلمس خساسة الحيل الظاهرة من أبي جعفر، باتخاذ العلم والفقه أداة للشر المدبر، وعظماء العلماء وسائل للإساءة للمسالمين الذين يأمن جانبهم فلنقس عليها فظاعة تدابيره السرية لمن يخشى العواقب منهم، ولندرك جلالة الحق إذ ينتصر على الحيلة،وجلجلة الحقيقة إذ تظهرها وسيلة أريد بها طمس معالمها، ومكانة الإمام الصادق في العلم إذ يتواضع أمامه العظماء من الفقهاء، في مجلس علمي يسيطر عليه خليفة عالم:

أقدم المنصور الإمام الصادق من المدينة إلى العراق وبعث إلى أبي حنيفة فقال له: إن الناس قد افتتنوا بجعفر. فهيئ له المسائل الشداد.

يقول أبو حنيفة عن لقائه بعد ذلك: "بعث إلي أبو جعفر وهو بالحيرة فأتيته. فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه. فلما أبصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلني لأبي جعفر فسلمت عليه، فأومأ إلي فجلست.ثم التفت إليه فقال: يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة. قال جعفر: إنه قد أتانا. ثم التفت إلي المنصور وقال: يا أبا حنيفة ألق على أبي عبد الله "الصادق"مسائلك. فجعلت ألقي عليه فيجيبني فيقول: أنتم تقولون كذا. وأهل المدينة يقولون كذا. ونحن نقول كذا. فربما تابعهم. وربما خالفنا جميعا حتى أتيت على أربعين مسألة".

ولقد قال أبو حنيفة في مقام آخر: "ألسنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس".

وإنما يقصد أبو حنيفة باختلاف الناس الاجتهاد الفقهي للمقارنة بني مذاهب المجتهدين.. فأبو حنيفة – وهو الإمام الأعظم عند أهل السنة – يقرر أن الإمام الصادق أعلم الناس باختلاف الناس في المدينة حيث علم المحدثين، وفي الكوفة حيث علم أهل الرأي.. وكانتا قد بلغتا أوجيهما، على أيدي أبي حنيفة ومالك، وهما التلميذان في مجالس الإمام الصادق. وكمثلهما كان إمام العراق الآخر سفيان الثوري.

وأبو حنيفة أكبر سنا من جعفر الصادق. ولد قبله بأعوام وسيموت بعده. وكان أبو حنيفة كما قال مالك لو حدثك أن السارية من ذهب لقام بحجته.

والجاحظ كبير النقدة يقول بعد مائة عام: "جعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه، ويقال إن أبا حنيفة من تلاميذه وكذلك سفيان الثوري. وحسبك بهما في هذا الباب".

والجاحظ يذكر تلاميذ العراق. ولو ذكر تلاميذ المدينة لما نسى مالك بن أنس.

* * *

بلغ الإمام الصادق بمسالمته للمنصور بعض آماله لأهل بيته، بقية أيام حياته، بل طوال خلافة أبي جعفر المنصور. فكان ميمون النقيبة بالسلام الذي نشده، والأمان الذي دعا له، وأطال زمانه. ومنع كثيرا من الطغيان الذي طالما شكاه أبوه، على ما سيروي ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة – "ثم لم نزل أهل البيت نستذل ونستضام، ونقصى ونمتهن، ونحرم ونقتل ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا. ووجد الكاذبون والجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعا.. فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ورووا عنا ما لم نقله وما لم نفعله ليبغضونا إلى الناس. وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن. فقتلت شيعتنا بكل بلدة. وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة. ومن يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله أو هدمت داره. ثم لم يزل البلاء

يزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين. ثم جاء الحجاج[٣٣] فقتلهم كل قتلة وأخذهم بكل ظنة وتهمة. حتى أن الرجل يقال له زنديق أحب إليه من أن يقال شيعة علي".

وفي عصر الباقر كان الحسن البصري (١١٠) الجسور "قاضي عمر بن عبد العزيز وشيخه الذي لا يهاب الخلفاء" إذا روى عن أمير المؤمنين علي قال: "قال أبو زينب" ليخفي الاسم الذي لا خفاء له!

بل كان الشعبي (١٠٤) شيخ المحدثين بالعراق يقول: "ماذا لقينا من آل علي إذا أحببناهم قتلنا وإذا أبغضناهم دخلنا النار".

وكان طبيعيا في دولة "هرقلية" همها الملك لا الدين، تعاقب من تتوهم خطره عليها وتترك من تزندق، أن تزداد الاستهانة بالدين في مقابل السلام الذي تنشده الدولة، والبلهنية التي يؤثرها دعاة الدعة. بدأ ذلك من عهد معاوية وسيستمر استمرار فساد الدولة. وستستبقيه لتصرف الناس عن الاهتمام بأهل بيت النبي، أو توقع بهم لفرطات تفرط من أحدهم، أو تعزى كذبا إليهم، منتهزة للفرص حينا أو مفتعلة لها في أغلب الأحيان.

ثم كانت الأوامر تصدر من بغداد إلى أرجاء الإمبراطورية التي تدين لبني العباس، ومنها مصر، أن "لا يقبل علوي ضيعة،ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها. وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد – والرقيق يوم ذاك قوة العمل – وإن كانت بين العلوي وبين أحد خصومة فلا يقبل قول العلوي. ويقبل قول خصمه بدون بينة"!

---

(٣٣) أطلق الخليفة سليمان بن عبد الملك من سجون الحجاج في يوم واحد ثمانين ألفا.منهم ثلاثون ألفا بغير ذنب. ومنهم ثلاثون ألف امرأة.

وكانوا يسفرون من الأطراف إلى العاصمة ليكونوا تحت الرقابة بل أمر الرشيد أن يضمن العلويون بعضهم بعضا،وكانوا يعرضون على السلطان كل يوم، فمن غاب عوقب... وكأن "أهل بيت النبي" جالية من العدو أو شرذمة من المشبوهين.

* * *

ولقد كان يكفي للحيطة أقل القلي لمن حاكم يريد أن يطمئن. وإنما كان ذلك الكيد سياسة إبادة مستمرة، يشترك في تنفيذها الخلفاء، والأشياع الظلمة. تدفع الثائرين إلى أن يثوروا،فيؤخذوا بثوراتهم، أو يؤخذ بغيرهم بجرائر تنسب إليهم، أما سياسة أهل البيت فواضحة من شعار أبناء علي في كلمة مسلم بن عقيل: "إنا أهل بيت نكره الغدر" قالها عندما عرض عليه البعض قتل عبيد الله بن زياد في إحدى زياراته. فنجا ابن زياد بهذا الشعار ليقتل مسلما فيما بعد. أما شعار حاشية معاوية فكان "إن لله جنودا من عسل" يقصدون دس السم إلى أعدائهم فيه.

ولقد طالما استعمل الطغاة السم في أهل البيت في القرون التالية. فإن لم يكن سم في خفاء فالقتل جهرة. ومن الروايات أن أئمة أهل البيت – الاثنى عشر – ماتوا مسمومين ماعدا أمير المؤمنين عليا وأبا الشهداء الحسين – ماتا شهيدين.

وفي أيام الخليفة الهادي (سنة ١٦٩) كان أهل بيت النبي في المدينة يستعرضون كل يوم! لكل واحد منهم كفيل من نسيب أو قريب. بل ولي عليهم واحد من ذرية عمر بن الخطاب هو عبد العزيز بن عبد الله. فولى بدوره على أهل البيت رجلا يقال له عيسى الحائك. فحبسهم الحائك في المقصورة. فثارت لأجلهم المدينة إذ ثاروا، وكسرت السجون وأخرج المسجونون، وبويع للحسين بن علي بن الحسن. فبقى واحدا وعشرين يوما بالمدينة ثم ارتحل إلى مكة فأقام بها إلى زمن الحج.

وكرر التاريخ نفسه في خروج الحسين ومن معه من أهل المدينة إذ جاءه الإمام موسى الكاظم يستقيله من الخروج معه، كما صنع أبوه مع النفس الزكية "محمد بن عبد الله". قال الكاظم للحسين "أحب أن تجعلني في حل من تخلفي عنك" قال: أنت في سعة. قال الكاظم: "أنت مقتول.. وعند الله عز جل أحسبكم من عصبة..".

وجهز الهادي جيشا لاقاه حيث استشهد في موقع يقال له: "فخ" ومعه كثير من العلويين. وحملت رأس "الحسين شهيد فخ" إلى القائد العباسي بالبشرى! مع رؤوس مائة آخرين.

واستعرض القائد الرؤوس بالمدينة فقال الإمام الكاظم عندما عرضوا رأس الحسين: "إنا لله وإنا إليه راجعون. مضى والله مسلما صالحا. صواما قواما آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر. ما كان في أهل بيته مثله".

وكان مع الحسين يحيى بن عبد الله بن الحسن "أخي محمد وإبراهيم، وإدريس أبناء عبد الله بن الحسن" فلما انتهت المعركة استتر ثم ظهر، فخرج على الرشيد في بلاد الديلم، ووجه إلهي الرشيد جيشا بقيادة الفضل بن برمك حتى استسلم بعهد مكتوب. ومع ذلك استفتى الرشيد العلماء لقتله، فأبى ذلك محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة وصاح: ماذا تصنع؟ لو كان محاربا وولى كان آمنا.

لكن الرشيد وجد من علماء السوء من أفتاه بقتله، وكان هو أقدر على النفاق السياسي من مفتيه. أخذ من المفتي ما يملكه، ليصنع هو ما يقدر عليه الخناق حتى مات في سجنه، كمثل ما سيموت في سجن الرشيد الإمام موسى الكاظم ويشهد الرشيد الناس عليه، ليبرئ نفسه من تهمة اغتياله.

أما الأخ الرابع إدريس فأفلت هاربا إلى مصر، ثم إلى المغرب، وقيل دس إليه الرشيد هناك من سمه. فأسس ابنه دولة الأدارسة.

وسيموت في حبس الشريد كذلك عبد الله بن الحسن "الأفطس". قتله جعفر بن برمك وزير الرشيد. وسيموت في حبسه محمد بن يحيى بن محمد بن عبد الله بن الحسن، والعباس بن محمد بن عبد الله، وكذلك الحسين بن عبد الله بن جعفر(٣٤).

وفي عهد المأمون وجه إلى جماعة من آل طالب. فحملوا إليه في مرو عاصمة خراسان وفيهم الإمام علي الرضا "بن الكاظم بن الصادق". فخاطبه في أن يكون ولي عهده. فأبى. فتهدده بقوله: "إن عمر جعل الشورى في ستة آخرهم جدك. وقال: من خالف فاضربوا عنقه. ولا بد من قبول ذلك" فقبل. وبايع له المأمون والعباس بن المأمون.

ثم دعاه المأمون للخطبة فأوجز، وكأنه يتوقع وجازة أيامه. فاكتفى بعد أن حمد الله بقوله: "إن لنا عليكم حقا برسول الله صلى الله عليه وآله. ولكم علينا حق فإذا أديتم إلينا ذلك وجب علينا الحق لكم". لكنه مات بعد قليل في ظروف مبهمة لا يستبعد منها دس السم كما تؤكد الشيعة، فموت علي الرضا كان حلا لإشكالات بني العباس سواء من يحبون المأمون، أو الكارهون للرضا، أو للمأمون ذاته(٣٥).

---

(٣٤) وتستمر عجلات الطغيان في الدوران. وتتوالى مقاتل الطالبيين توالي الخلفاء العباسيين – ففي بدء عهد المأمون يقتل بالعراق: الحسن بن الحسين بن زيد عند قنطرة الكوفة مع أبي السرايا. والحسن بن إسحق بن علي في وقعة السوس مع أبي السرايا. ومحمد بن الحسن بن الحسين يقتل باليمن في أيام أبي السرايا وعلي بن عبد الله بن محمد يقتل باليمن في أيام أبي السرايا ومحمد بن إبراهيم بن إسماعيل "وهو ابن طباطبا" الخارج مع أبي السرايا سنة ١٩٩ مطالبين بالبيعة "للرضا من آل محمد". وقد انهزموا بجيش هرثمة بن أعين قائد المأمون سنة ٢٠٠. وقتلى العلويين على يد هذا الجيش كثيرون.

(٣٥) وف يعهد المعتصم خرج محمد بن القاسم.. بن علي بالطالقان فقبض عليه عبد الله بن طاهر وبعث به إلى الخليفة. وحبس المعتصم عبد الله بن الحسن.. بن جعفر حتى مات في مخبئه. فلما جاء الواثق أمن العلويون بضع سنين إذ جمعوا ثم حبسوا، عن الانطلاق خارج العاصمة سامرا، فتطامنوا واطمأنت السلطة. ثم هبت عليهم في أيام المتوكل ريح عاتية من جنون الفزع.

ولا نستطرد للسرد. فليس في تاريخ البشرية، كلها، أسرة شردت جردت، وذاقت العذاب والاسترهاب، مثل أهل بيت النبي ﷺ.

بدأ بهم تاريخ الإسلام مجده. واستمر فيهم بعبرته وعظمتها. قدم أبوهم للبشرية أسباب خلاصها بكتاب الله وسنة الرسول. وقدم أهل بيته أرواحهم في سبيل القيم التي نزل بها القرآن وجاءت بها السنة. كانت مصابيحهم تتحطم لكن شعلتهم لا تنطفئ، لتخلد الجهاد والاستشهاد والإرشاد، بالمثل العالي الذي كانوه، والضوء الذي لم تمنع الموانع من انتشاره، وعلم فيه أبناء النبي أمته بعض علومه: أن الاستشهاد حياة، للمستشهدين وللأحياء جميعا(٣٦).

فلقد أزل قبر الحسين وحرثه حتى لا يزل. وشتت شمل شيعته وفرقهم في النواحي فمنهم من حبسوا ومنهم من تواروا حتى ماتوا في مهربهم – وتناقل الناس أشعارا منسوبة إلى ابن السكيت عالم النحو الكبير، وكان يعلم ولدى المتوكل. وفي هذه الأشعار:

تالله إن كانت أمية قد أتت … قتل ابن بنت نبيها مظلوما

فلقد أتاه بنو أبيه بمثله … هذا لعمرك قبره مهدوما

أسفوا على ألا يكونوا شاركوا … في قتله فتتبعوه رميما

وربما أراد المتوكل أن يتيقن من صدور هذا الشعر أومن ولاء العالم حين سأله:

أيهما أحسن: ولداي "المؤيد والمعتز" أم الحسن والحسين؟.. ولم يرضه جوابه. فأمر بقتله فقتلوه. ولم يلبث المتوكل إلا قليلا حتى قتله ابنه "المنتصر" في مؤامرة.

وإنما كانت فظاعة الجريمة الأخيرة قصاصا عجلت به السماء، لمقتل عالم آثر الصدق. ولم يصلح للعلويين بال إلا أشهرا بعد مصرع المتوكل. ليعود البطش بهم إلى عنفوانه في أيام المستعين. فمنهم من خرج ولم يخرج الناس معه، فحبس ليموت سنة ٢٧١. وهو الحسن بن محمد المعروف بالحرون. ومنهم محمد بن جعفر خرج وحبس حتى مات في سامراء ليتتابع سجل الشهداء.

(٣٦) نقف عن السرد، عند أبيات لابن الرومي (٢٢١– ٢٨٤) من جيميته في رثاء يحيى بن عمر بعد مقتله إذ خرج على بني العباس في القرن الرابع من جراء ظلمهم:

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج … طريقان شتى مستقيم وأعوج

أكل أوان للنبي محمد　　قتيل زكي بالدماء مضرج؟

بني المصطفى كم يأكل الناس شلوكم　　لبلواكمو عما قليل مفرج

أبعد المسمى بالحسين شهيدكم　　تضاء مصابيح السماء فتسرج؟

أيحيى العلاء لهفي لذكراك لهفة　　يباشر مكواها الفؤاد فينضج

لمن تستجد الأرض بعدك زينة　　فتصبح في أثوابها تتبرج؟

سلام وريحان وروح ورحمة　　عليك ومحدود من الظل سجج

ألا أيها لامستبشرون بيومه　　أظلت عليكم غمة لا تفرج

نظار لكم أن يرجع الحق راجع　　إلى أهله يوما فتشجوا كما شجوا

غررتم إذا صدقتمو أن حالة　　تدوم لكم. والدهر لونان. أخرج

أبى الله إلا أن يطيبوا وتخبثوا　　وأن يسبقوا بالصالحات ويفلجوا

لعل قلوبا قد أطلتم غليلها　　ستظفر منكم بالشفاء فتثلج

obeikandl.com